الإنسان .. في الرواية الأميركية المعاصرة

تأليف الناقد ارموند فولمر
ترجمة وتلخيص توفيق صدارى

مقدمة

اذا كان لا مفر من احتراف الكتابة ، واتخاذها وسيلة ، لتصوير مشاكل المجتمع ، واذا كان لا مفر من اعتبار كل ما تخرجه المطابع ودور النشر في كل يوم ، وبالمئات ، ادبا ، فباستطاعتنا حينئذ ان نجد حشدا كبيرا من الكتاب ، وكتاب الرواية بصورة خاصة ، يحسون بينهم وبين انفسهم أنهم قدموا للمجتمع خدمة جلى ، وأدوا ضريبة فرضها عليهم ضميرهم . لقد قدم لنا هؤلاء رواياتهم بالسرعة نفسها التي تنتج فيها آلة حديثة من آلات القرن العشرين اداة منزلية ، او ترفيهية بسيطة. ان المشكل ليس في فقدان حملة الاقلام وخلو السوق من الكتب الادبية. بل المعضلة هي في أن نسبة ضئيلة جدا من هؤلاء الكتاب ، استطاعوا أن يقدموا لنا أشياء دسمة ، فيها رائحة الأدب ، وتحمل في صفحاتها الافكار الايجابية البناءة . ان ادبنا سيظل في دائرة الشك .. أيصبح عالميا، أم يبقى محصورا بين المحيطين ، ان لدينا قلة من هؤلاء الذين يستطيعون أن يدللوا على أن لديهم أشياء جديدة يقولونها لنا ويكشفونها .

وساهتم في هذاالكتاب بما يقوله الكاتب ، بغض النظر عن الحالة التي الزمته ان يقول ، ويعبر عما أراد او الزم به . وطبيعي أن عزلا تاما بين التفكير والتعبير ، وبين المسبب والمسبب له امر غير ممكن .

فكل أثر أدبي يؤخذ دائما على انه ممثل لحالة ذهنية أو زمانية ما. وما لم تكن هناك قرائن واضحة تظهر ذلك التمثيل في اي عمل فني، فان الأثر يظل موضع شك في نجاحه أو فشله . ان ذلك تابع للصورة التي يرسمها الفنان للانسان ، والصورة التي الح على ابرازها هنا ، ليست صورة نموذجية افرضها عى الكاتب ، كما أنعدم وجودها في أثر ادبي، لا يعني نقصا فنيا عند ذلك الكاتب ، والروائي الفنـــان بصورة خاصة . فبامكاننا أن نكون خونة ، أو مواطنين شرفاء ، وبامكانـــنا ، أن نكـون موهوبين خلاقين ، ولكننا ، نستخدم تلك الموهبة الخلاقة في مسخ الانسان وتشويهه ، وابرازه على غير حقيقته .

وما دام الانسان هو المحور الذي يرتكز عليه ويدور حوله كل فن ، فيجب أن يظل العنصر الاساسي المشرق ، لا الممسوخ ، الذي يلح عليه النقد .. الصورة الحقيقية للانسان ، الانسان الكـريم ، والمفكر المبدع الخلاق ، والفنان الحقيقي هو الذي يقف بقوة، غير متأثر بالمديح أو الذم، ولا يلتفت لما يقال عنه أي التفات ، أكان ذلك في مصلحته أو ضدها، انما يفكر ويعمل حسب أصالته المتفردة الخلاقة .

صورة الانســان

يتميز هذا العصر عن بقية العصور ، بانه عصر القلق ، عصر انشقاق الروح ، العصر الذي لا يقاسي فيه الانسان الاضطهاد والمجاعة والدمار في زمن الحرب فحسب ، بل هو يقاسي من مشاكله الداخلية الذاتية المفزعة . فالرعب واليأس والانعزال والقحط ، والشعور بالتفاهة، يحسها كامنة في صميم وجوده . ان اليأس والشعور بالتفاهة يعذبان انسان هذا العصر ، وفي لحظات حياته الضائعة الفارغة ، أكثر مما يفعل به شبح الحرب ، وما يجلبه من الدمار. ان التقدم المادي الهائل، واحتلال الآلة مركز الانسان ، هو الذي يجعله يشعر بالانسحاق تحت وطأة وقعهما المبهظ ، لقد اصبح الانسان صفرا في عصر الآلة .

مر زمن ، اعتاد الكاتب فيه أن يجعل من انحلال المجتمع موضوع دراسته واهتمامه . وفي هذه الايام تبدل كل شيء ، ان انحلال الفرد نفسه .. الانسان هو المشكلة التي يعانيها الفنان ، فهو يغوص في أعماق معضلة الفرد ، باحثا عن أسباب حيرته وتمزقه .

ونحن هنا أمام صورة هذا الانسان .. الصورة التي يرسمها لنا روائيو اليوم .

ان صورة الانسان في الادب الاميركي الحديث بغيضة وممسوخة ، فمعضلة الانسان ووضعه وموقفه في معظم رواياتنا مهزوزة المعالم، غائمة الخطوط ، فالكاتب يقف في المؤخرة ،ينظر لانسانـــنا الحديـث بروح انعزالية ، ودونما اكتراث ، دون المشاركة ، او محاولة التدخل في حياة هذا الانسان ، وايجاد الحل الصحيح له . وهذا بلا شك انحراف في أدب الرواية ، أغزر ما لدينا من الانتاج الادبي في هذا البلد ، بل هو الوجه الوحيد لأدبنا الاميركي أمام العالم . وهو فوق ذلك خروج على المبادىء الاخلاقية التي يجب أن يلتزم بها الروائي ازاء مجتمعه، وانحراف عن التقاليد التي بنيت عليها أجيال امتنا ، وذلك بانكار كل تراث أدبي تحدر الينا عبر السنين الطويلة التي عشناها وعاشتها اجيال قبلنا .

وليسهل علينا تصنيف الكتاب عندنا حسب نظرتهم للانسان ـ اذ هم منقسمون الى فرقاء وشيع وطوائف ، وكل فريق يعتنق مذهبا فكريا معينا ـ نجد أن لابد من طرح السؤال التالي :

ما هي نظرتك للانسان ؟؟

وردا على سؤالنا هذا يأتي الجواب مؤكدا في دلالته على التمذهب بالعنف والوحشية والجنس ، ومقت النفس البشرية لنفسها ، ثم وباء القلق ، فالتمهيد لاعتناق العزلة والاحساس بالتفاهة .

سيبقى الانسان هو المحور الذي يدور عليه الأدب ، ويرتكز اليه الفكر ، ما بقي الانسان ينتج أدبا أو يضع نظريات فلسفية ، أو يخطط للتفكير الاجتماعي .. وحتى عندما يتظاهر الكاتب أنه يتناول كائنـات غير انسانية لبحثه أو قصته ، كخرافات عن الحيوان ، أو أساطير عـن الجنيات ، أو ما يدعونه بالأدب العلمي .

ان العالم يقف الان منشقا على نفسه لسبب واحد، هو الاختلاف على النظرة لهذا الانسان ، سياسيا وفكريا وفنيا وعلميا ودينيا ، وأدبنا يعكس ، بلا شك ، هذا الانقسام بل هذه الانقسامات حول طبيعة الانسان والنظرة اليه . وتنشأ الصعوبة في تقدير هذا الانعكاس، انعكاس الصورة، حينما تكون الانقسامات غير واعية أو غير مدركة لهذه القوى المتصارعة في أدمغة الناس حول أنفسهم وطبائعهم ، وامكاناتهم واجناسهم وأهدافهم والتزاماتهم .

وما لم يكن الفنان ذا نظرة صادقة فعالة ، تصدر عن تجربة معاشة بين الناس فانه لن يحصل على الجمهور الذي يتمناه . ان الفنان الذي يلاصق الشعب ملاصقة تامة ، ويعي مشاكل حياته بدقائقها وعظائمها، هو الوحيد المكلف بالقاء الضوء على حياة الفرد العادي ، ومن ثم وضعه في المكان اللائق به .

ومادمنا بصدد البحث عن جواب « ما هي نظرتك للانسان ؟ » ، فلا مناص لنا من أن نبحث الرواية التي تهتم بهذا الانسان ... الروايةالتي تفترض ، وترى الانسان كائنا مفطورا على الخير ، متطورا باستمرار ، صاعدا للكمال ، وملبيا لالتزاماته الاخلاقية في المجتمع الذي يعيش فيه.

ان الانسان يعيش في عالم أخلاقي محايد مخلوق بقوى الصدفة. وعلينا ان نتعرف على وجه هذا الانسان، لانه يطالعنا في كل سطر خط في

أدب القرن العشرين ، وبصورة خاصة في آثار (برنارد شو) و (هـ. ج. ويلز) .

أما في الادب الاميركي الحديث ، فيختلف الامر كليا ، سيما الآثار التي خلفتها السنوات الخمس والعشرون الأخيرة . فهناك فيض غامر من الروايات الاميركية ، التي تعرض في السوق حاليا الانسان فيها « شيء » وموضع تهكم وسخرية ، عاجز وبدون هدف . تافه ومعزول ، مطبوع على الشر ومنحط ، غير مستجيب لالتزاماته الاجتماعية وغارق في نفس الوقت في تقريرية مبهمة من الاقتصاد والحياة ، شخصيته ـ كفرد ـ ملفاة ، او مضغوطة ، ويعيش في عالم حقود .

ان هذا المخلوق ـ ماديا ـ أقل من انسان ، بل اقل من فرد ، فمثلا « مرسولت » بطل (كامو) في روايته « الغريب » لا يمكن أن يكون بحال من الاحوال الا نصف انسان بالضرورة سواء ، رآه كامو مفطورا على تلك الحالة ، أو أنه انحط اليها ، ونفس الشيء يقال عن « ديفيد لنكهورن » بطل رواية « نلسون الجيرن » (نزهة على الشاطيء المقفر). كما هو الحال في معظم الروايات الاميركية الحديثة .

هذا النموذج من الكائن البشري تكاد لا تخلو منه رواية اميركية حديثة واحدة . وهو ما قال عنه (ك.س. لويس) « انه دعوة لافناء الانسانية في الكائن الانساني » .

انهذه النظرة السوداء ، كانت ولا تزال قائمة حية ، تمتد اصابعها الى كل اتجاه وتنتشر وتتنشر ، فهي ذات كيان ووجود وتأثير على عقل الجيل الشاب . وأكثر من ذلك : لقد أصبح لها فريق من النقاد يدافعون عنها بحرارة ، ويضعون لها المبادىء والمبررات ، وهي تضم تحت جناحها فريق الملاحدة من الوجوديين ، والملاحدة من الوجوديين يؤكدون على تفاهة الحياة وعظمة الموت . ويشرح « نيقولا برديف » هذا بقوله « الحقيقة العميقة الحية ، هي ليست في أن العالم والوجود تافهان ، انما العالم يمر في مرحلة تافهة » ، وقد أصبحت الشعارات الوجودية هي العناوين الكبرى لدى كتاب روايات اليوم .

احياء الخطيئة الأولى

كان ما جاء به كلفن لوثر ، هو تعاليمه للمسيحي عن الخطيئة الاولى وسقوطه ونهاية مسعاه . وهو ما عرف فيما بعد « بالتجربة الجماعية ».

فقد رأى كلفن لوثر ان الناس قد انحدروا نحو الفساد، والانحطاط، وان الفجور قد شمل كل امكاناتهم ، وساد مؤسساتهم ، وان لا سبيل الى خلاصهم الا بالعودة الى الايمان بفداء المسيح العظيم . وفي مقابل هذا ، فان نظرة الشريعة الكاثوليكية حول طبيعة الانسان ـ بالرغم من احترامها لهذه الطبيعة الانسانية ، وكون الكائن البشري جريحا أزليا بسكين الخطيئة ، وهو ما يستدعي الفداء من خلال المسيح العظيم ـ لم تحاول أن تعير تعاليم كلفن أي اهتمام ، بل رفضتها وأنكرت عليه فكرته القائلة ، « ان طبيعة الانسان تتحول كليا الى عفن وتعيش في السقوط». وفكرتها هي أن صورة الاله وعناصر المسيحية ، والاخلاق ، لا تزال تنضم عليها جوارح هذا الانسان .

ان هذا العصر قد شهد دراسات عدة عن المسيحية وكلها قائمة على الرؤية الخاطئة . وليس هناك من مثل أصدق على ما ورد عن قضية الخطيئة الاولى ـ خطيئة آدم ـ مما أورده جماعة تطلق على نفسها « الانسانيون المتحررون » ـ والذين هم غالبا يجهلون الشريعة المسيحية على حقيقتها ، عدا عن انهم لا يستجيبون لصوتها، ويرونها على انها غير عادلة .

ان الاسلوب السطحي في التشخيص ، والذي غالبا ما يكون تعبيرا، عن أفكار فرويدية ، غير مهضومة ، يميل لأن يصور لنا الانسان « فأرا في مصيدة » أو شيئا محصورا بين جدران علبة صغيرة . ليس له حرية الاختيار أو الحركة . وهو خاضع ازاج اللحظة التي يختارها الكاتب وبسبب هذا يصبح الانسان (ذلك) وتفشل لدى مثل هذا الكاتب صورة الشخصية التاريخية . لانها تفترض لنفسها الكمال والنضج في الوقت الذي لا يوجد فيه تفسير أو تحديد للشخصية الكاملة في الحياة. ليس بامكاننا أن نتعرف على كل الحقائق التي تكون شخصية انسانية ما . وافتراض الكمال (كذا) هو ما يكشف لنا الزيف في مثل تلك الشخصيات.

ان « اللاوجود » حسب تعبير سارتر بالنسبة لأي كائن ، حيث لا منفذ للخارج هو ما تعانيه قضايانا الادبية ، والنظرة المخلصة عن الانسان.. النظرة الكاملة ... لم تستطع حتى الان أن تكشف لنا عن انسان مجبر بشكل قاطع ، ليس لديه من الاختيار شيء ـ أجل ان حياة الانسان ـ تبعا للظروف والمحيط ، والوضع الاقتصادي والمشكلة الاخلاقية ـ قد تقوده احيانا الى حيث يكون فيها اختياره محددا ، ولكنه يملك ـ دائما ـ حرية الاختيار في : (نعم أو لا) فاذا ما كان هذا الانسان محكوما عليه بالاعدام ظلما أو عدلا ، فقد لا يكون لديه الاختيار في الحياة أو الموت

وليامز

شتاينبك

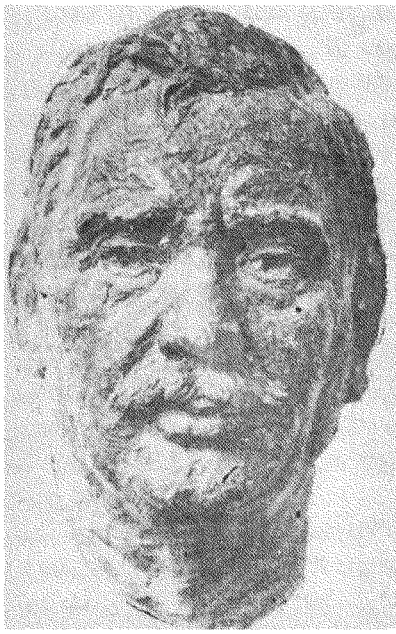

همنغواي

ولكن يبقى لديه الاختيار في كيفية قبوله الموت .. ان الاختيار والارادة هما عنصرا عظمة الانسان . والامانة التي حملته الطبيعة مسؤوليتها.

وصورة الانسان في الادب الاميركي الحديث ، التي تبرز لنا مجردة من عناصر امتلاك الحرية والارادة ، هي صورة لكائن أقل من انسان ... نصف انسان بالضرورة ، أو بالحري « لا انسان » . فالفرد قادر على أن يمسخ انسانيته بالكلام ، وأن يتقمص حالة « اللاانسان » .. وبذلك يدخل الى « الارض الخراب » بالتجديف والسلبية والرفض ، وانكار الارادة الحرة ، والمسؤولية الاخلاقية . انهذا في المستطاع اذا ما أراد الانسان أن ينفصل عن النوع الانساني.

ان المذهب الانساني الذي الح عليه هنا ، وأطالب بوجوده في الادب الاميركي ، هو ذلك المذهب الذي أعطى الفكر الغربي شكلا ومنحه كيانا خاصا في تاريخ الثقافة الطويل . ذلك المذهب الذي شحذ حساسية اللحظة لدى قادة الفكر في اللغات الاوربية بصورة عامة والانجليزية بصورة خـاصـة .

فالكتاب الاميركيون ، وضعوا نصب أعينهم ، وركزوا اهتمامهم على نظرتين غريبتين كان لهما أثر ملحوظ في سياق الرواية الاميركية : فهم قد انضموا الى المعسكر الثقافي الذي يريد ويرغب أن يرى الانسان مفطورا على الخير ، ولكنهم مجبرون لأن يروا الشر كامنا في أعماق هذا العالم. وبهذا فهم يؤكدون على اعتناقهم لاحياء مذهـب كلفن . (السقـوط الجماعي أو الكوني) ، وعلى سبيل المثال نذكر هنا شتاينبك في روايته « شرقي عدن » و (ويليام مارش) في رواية « البذرة الشريرة » ، وكلا الروايتين لاقتا من الرواج ما لم تلقه رواية اميركية حديثة اخرى.

خلق لناشتاينبك من « كاثي آن » طفلة عنيدة شريرة بدأت بارتكاب جرائم جنسية طفولية ، فتحاول أن تشعل النار بوالديها ، وتستمر في حياتها الاجرامية الجنسية لتصبح عاهرة ، ثم سيدة شـاذة « كاثي شريرة » هذا ما يقول شتاينبك ويضيف « لقد مر زمن كانت فيه بنت مثل كاثي مضطرة لان تستجيب لرغبات الشيطان » ويفسر ذلك بقوله « أعتقد انه كثيرا ما يولد في هذا العالم وحوش من آباء آدميين. فبعضهم تراه مسخا مرعبا ، برأس ضخم ، وجسم هزيل دقيق ، وبعضهم بدون ذراعين أو ساقين ، وبعضهم بذيول وأفواه في غير مواضعها الطبيعية ، لقد خلقوا هكذا بالصدفة . وليسوا نتيجة لخطيئة أحد كما اعتاد الناس أن يظنوا ، من أن ذلك يكون عقابا وجزاء لخطايا مخبوءة ، وكما يمكن ان يولد الانسان بدون رأس او ذراع ، فانه بالامكان أن يولد وهو عار من الرحمة والعاطفة والوعي ، واني أعتقد ان كاثي قد ولدت عارية من العاطفة والوعي. وبذا فقد اضطرها هذا النقص لأن تنهج في حياتها ذلك النهج، لم تكن تشبه أحدا من الناس .. فقد كانت كذلك منذ ولادتها » .

ولكن .. ما هي نظرة وليم مارش .. في روايته البذرة الشريرة ؟

اننا نجد نفس النظرة الوحشية القاسية .

« بعضهم ولد هكذا قضاء وقدرا ، مجرمين منذ الولادة ، وليس في الامكان توجيههم أو تغييرهم أو اصلاحهم » . ولكن في الوقت الذي يحاول فيه شتاينبك أن يعتبر أن مثل هذه الاشياء توجد عند بعض الناس بالصدفة، فان وليم مارش يصر على أنها وراثية .

إن بطلة « رودا » فاجرة لأن جدتها كانت فاجرة « انه عيب الجنين الاول ، وترى الام ـ أم رودا ـ نفسها انها كانت الواسطة والوسط الذي انتقل فيه الفجور من الجدة الى الحفيدة ، والتي حملت البذرة الشريرة، الى «رودا» من جدتها ، والتي جعلت من «رودا» ذلك النمط من الانسان».

هذا مثال على أدبنا الحديث . وهناك كتاب آخرون منهم « ليليان هيلمان » في رواية « ساعة الاطفال » .

وعيب هؤلاء الكتاب هو انهم لم يحاولوا ان يساووا بطل الرواية ببطلتها ، فقصروا ذلك الشذوذ على المرأة دون الرجل . وهذا ما هو في الواقع دون مذهب كلفن ، من أن كلا الجنسين سواء في الخطيئة . ان الانسان ليس خيّراً وليس شريراً ، ولكنه كلاهما.. واني أعتقد ان رؤية الشر الكامنة في الخير فكرة هادمة للشخصية الانسانية ، أكثر مما لو كانت الرؤية للخير الكامن في أعماق الشر.

ـ جون الدريج .. والبحـث عن القيم ـ

منذ زمن بعيد ، وحتى الان ، وجون الدريج ، يتنكب المسالك الوعرة في ثقافتنا ، ويغامر باقتحام مجاهل الفكر ، مقتديا بديوجين الذي كان يحمل مصباحه باحثا عن الهراطقة. ولقد كان احتجاج الدريج علينا ان كل ماوجده في الادب الاميركي لا يخرج عن الالتزام بأمانة . وانساق نتيجة لذلك الى عبارته المشهورة « فليكن ضلالك على نفسك » . وبالرغم من إحترامي الجم لهذا الناقد ، أراه ينصب نفسه هرطقيا في داخل القيم الملتزمة في أدبنا الحديث.

كان كتاب الدريج السابق « بعد الجيل الضائع » يندب عدم وجود القيم ، ورأى في ذلك معضلة يعانيها الادب الاميركي بوجه عام ، خاصة كتاب جيل الحرب العالمية الثانية ، وقد قال « ان ظروف العمل الادبي في هذه الفترة ، وما اقتضاه ، كانت تحتم مسؤولية الكتاب عن المرحلة التي يعيشون فيها ، وكان يجب ان تنعكس صورة هذه المرحلة على آثار كتابها، ولكن الظاهر هو أن كل ما تركه لنا الادباء الاميركان ، مهزوز ، بل يكاد يكون مطموساً » .

ويرى جون الدريج أن مرحلة « الجيل الضائع » (دوس ياسوس ، همنغواي ، فيتزجيرالد ، ولاردنر) قد اندثرت ، لأن كيانها الطبيعي للقيم الثقافية قد انحسر ثم انهار والقيمة الكلية لتلك المرحلة التي تكمن في أدب الدريج ، هو أنه استطاع أن يعيش تلك المرحلة ، بمعاصرته لها ، كما استطاع أن « يُمأسيها » .

ان الجيل الحاضر لم يستطع أن يخسر تلك القيم ثانية ، لسبب بسيط ، هو أن المرحلة الحاضرة لم تصلها تلك القيم ، وبذا فان الجيل الحاضر ، لم يستطع القبض عليها ليخسرها ، لانها سبقت وجوده حياة وموتا . وكل ما ترك لهذا الجيل هو أن يجعل من الحرب نفسها مأساة.

ونناقش الان فكرة جون الدريج التي تربط بين الكاتب والقارىء.. يقول الدريج « على الكاتب من الوجهة النظرية المثالية أن يتقاسم مع قارئه القيم نفسها ، وذلك لكي تكون المادة التي يختارها الكاتب القيمي قيّمة لديه بمقدار ما هي قيّمة لدى القارىء . ولكن تطبيق مثل هذا القول يفترض وجود مجتمع مثالي قائم على فروض إخلاقية ثابتة . نوع من المجتمعات ، لانتمي اليه في حياتنا الحاضرة ».

ونستطيع الان أن نناقش مثل هذا الرأي لنؤكد عكس نظرية الدريج التي تقول ان ما تدور حوله أفكار الكاتب يجب أن يتضمن نفس القيمة من حيث اعتبار القارىء لذلك الموضوع الذي تدور حوله الفكرة ، ولكن هناك سؤال :

هل مقاسمة القيم بين الكاتب والقارىء هي ـ واقعيا ـ هامة بقدر ما يراها الدريج ؟

هل الكاتب بطبيعته مصور فوتوغرافي أو عاكس ؟؟

قد يحاول كاتب ناشىء أن يلقي بكل القيم الثقافية الموروثة من وراء ظهره . أما الكاتب ذو الشخصية القوية ، المتمكنة فانه يكون دوما على مستوى قيمي يعزله بعض الشيء عن قرائه ، وبامكان مثل هذا الكاتب أن يخرج بآراء فيها من الحدة والفردية والشخصانية في اعتبـاراته للحياة ، ماقد يثير الاغلبية . ولكن مثل هذا لا يعدم جذب الاقلية اليه. وهذا ما يدعو للدهشة من أن الدريج يشكو من أن افتقار مجتمعنا للقيم، في هذه الفترة ، هو أساس ضعف أدبنا الحديث .

والظاهر أن الدريج يجهل الفرق بين القيم الثقافية للجمهور، التي يندب غيابها من الادب ووفرة القيم والمقاييس والاعتقادات والعادات في المجتمع ، والتي يقول عنها في مكان ما من كتابه « ان على الكاتب أن يتقاسمها مع قارئه » .

الم يوجد ديكنز ، وبرنارد شو ، ووايلد وبتلر ، وأغلبية قادة الفكر والادب ـ وفي مختلف مراحل التاريخ التي عاشوها ـ قيما كـانت على النقيض تماماً ، مما تعارفت عليه مجتمعاتهم ؟

ان لكل فرد قيماً من نوع مختلف . كما أن لكل عصر قيمه الخاصة. ولكي يكون لبحث في القيم واضحا ، يجب أن يحمل في طياته بعـض

الحقيقة . ان الماركسيين قيمهم ، وكذلك للمسيحيين والملاحدة قيم من نوع آخر . والمذاهب الثلاثة تنطوي – الى حد ما – من وجهة نظر الفضيلة – على البناء القيمي الذي يعطيها كيانا.

ان مشكلة الكاتب المعاصر ، ليست في انعدام القيم من المجتمع ، ولكنها كامنة في قبول أو رفض اختيار القيمة . كان أيسيكلوس وصوفوكليس، يمثلان سدانة القيم في الثقافة الاغريقية. لم يكونا قد وضعا تلك القيم في أدبهما ، كانعكاسات لاحوال مجتمعهما في ذلك الزمن ، بالرغم من ان القيم التي وضعاها اكتسبت فيما بعد ، شكل القيم الاجتماعية للثقافه الاغريقية بصورة عامة . كان وضعهما لتلك القيم اجتهادا فرديا ، ذلك لان القيم الاجتماعية في ذلك الزمن بالنسبة للاغريق – اخذت تميل للانحسار والتقلص ، واني اعتقد ان نفس الخطر ، خطر الانحسار والتقلص هو ما يحوّم فوق ثقافتنا وقيمنا الاجتماعية . كما نجدها في كل مراحل الحياة الثقافية وفي كل المجتمعات.

والذي أضاعه ادباؤنا ، ليس هو الهيكل الشكلي للقيم ، انهم أضاعوا النظرة الاساسية لطبيعة نوعهم الانساني ، فهم ، ليسوا على جهل بمعرفة من هم فحسب ، بل وما هم ؟ أيضا ... ، وتلك هي المأساة الكبرى . الان ... الذي لا يعرف طبيعة الانسان فيه بل الاشد ألما انه لا يعرف (ما هو) ، والى اي نوع من انواع الكائنات ينتمي .. فهل يمكن ان نطلق عليه كلمة «انسان» .. ما لم يعد الى نفسه من جديد ؟

ان الكاتب لا يلام على الخروج عن المجتمع، لانه يعكس تجربة الضياع، ان هذا من حقه البدهي. لقد رسم لنا « دانتي » صورة الضياع التي تنطبق على كل جيل وعلى كل عصر ، ويكاد يكون « فرانز كافكا » أعظم من صور مشكلة الضياع ، في هذا القرن وضياع كافكا نفسه يستمد حقيقته من جذور اليهودية الضائعة ، ومشكلة اليهود الذين ينتشرون في كل صقع من أصقاع الارض .

الاكلينيكية في الأدب

ان الادب هو صوت الانسان الحي في كل عصر . فما يتحدث به الناس في الشارع وعلى مائدة الطعام ، وفي غرف النوم والجلوس، وفي نجاواهم في أسرتهم ، وما يدون في سجلات المحاكم ، ووصفات العلاج التي يعطيها الاطباء لمرضاهم ، وتحاليل الامراض ، والرؤى ، والاحلام المرعبة منها والمفرحة .. كل هذه الامور على صلة بالادب . انها وثيقة الصلة بالادب ، ولكنها ليست في حد ذاتها أدبا . فهي تشكل – الى حد ما – مادة خاما ، تساعد في القاء الضوء على مسعى الانسانية وسلوكها وطريقة حياتها . وهي أيضا ليست مادة الادب الحقيقية .

ان الذي يصنع الادب الحقيقي هو جلاء ذلك النشاط الانساني – ومن ثم جعله دستورا للانسان .

إن واحدا على الاقل مما ذكرناه على انه يشارك في تكوين الادب – ولكنه ليس الادب في حد ذاته – هو تلك الموجة الطاغية في ادبنا الكلينيكي – التشريحي – الحديث .

تقول الكاتبة « ايرو ولفرت » : (أن يصبح الاديب طبيبا .. كذا .. يعني انه انحط الى اسفل الدرك ... ان الفن الطبي يدرك أن قضية الادب الاكلينيكي ، هي قضية ليست فقيرة فحسب ، ولكنها لا تفي بالغرض لتشريح المجتمع أيضا . ونحن لا نستطيع – دائما – أن نتعرف على كل الحقائق ، وان عدم معرفتنا هذه هي التي تعطينا الجانب الانساني في شخصيتنا » .

فكاتب الرواية مهما أورد من التفاصيل ، لن يستطيع أن يكشف لنا عن كل صغيرة وكبيرة ، حتى ولو عاش تجربة جيمس جويس . ان جيمس جويس نفسه ، ومن خلال تجربته الشخصية في حياته والتي انعكست على أدبه بصدق ، لم يستطع ان يحيط بكل جوانب (ليوبولد بلوم) اليومية في روايته يوليسيس ، ولا بمشاكل (ايرويكر) بطل رواية « يقظة فينمان » ، التي تمثل حقيقة الليل ، وما يدور فيها من القضايا الجنسية ، ونحن ندرك معظم الاشياء في حياتنا بالتقدير . ان كاتبنا الحديث يحاول ان يربط ، ويفسر ، ويشرح شخصية البطل ، كما لو كان هذا البطل مريضا في عيادة طبيب ، يخرج من العيادة ، وفي يده سجل طبي بكل أعراض وأحوال مرضه.

ان الطريقة التي يلجأ اليها الطبيب مع مرضاه في العيادة ، هي طريقة ، غير مشروعة بالنسبة للفنان . ولا يمكن ان نقبل بزعمه على انها فن . وان محاولة جمع كل ما يدور من أحاديث او أعمال في غرف البيت الداخلية أو في الشارع ، أو في قاعات المحاكم لا يمكن أن يبني رواية ، وسيضيع العمل الادبي ، وعندئذ لن يكون روشته طبية ، ولا لوحة فنية، ولكنه يصبح شيئا آخر يختلف عن الاثنين .

« إننا نتعلم كيف نقرأ ، ولكننا لا نتعلم كيف نميز » .

هذا ما يقوله (هيرما ووك) . ومثل هذا القول لا يصدق على الصغار الذين يجلسون في مقاعد الدراسة الاولية فحسب ، بل هو ما يعانيه الكتاب الكبار عندنا أيضا .

ان خير مثال لخير طريقة في اللجوء الى اسلوب التشريح في الادب ، والتجربة الادبية الناجحة التي يمكن أن تعطيها حقها في سطور، لما تمثله من جودة في الفن الادبي التشريحي هي الفصول الثلاثة المحذوفة من رواية دستويفسكي « المأخوذ » .

فموضوع الاعتراف في هذه الفصول ، كما يقدمه لنا دستويفسكي، والذي ينسجم انسجاما تاما مع ما هو شائع لدينا .. هو اغتصاب فتاة في الثانية عشرة من عمرها .

وقد ذكر دستويفسكي الظروف التي أدت الى مثل تلك الحالة في المجتمع مقدما .. أما بالنسبة للاسلوب الروائي في استخدام مثل هذه المادة ، فان التأسيس الذي قام عليه العمل الادبي – روائيا – كامل ومتين ، حتى ان طبيعة العمل لتظهر واضحة ، وبدون أن يكون فيه ثغرة واحدة ينفذ منها الى الانتقاص من قيمة العمل ادبيا وفنيا . ان نهاية الرواية واضحة جلية ، بينما العمل الذي أقدم عليه البطل، لم يحاول دستويفسكي حتى مجرد وصفه لا من الخارج ولا من الداخل ، ولم

روائع العلم والثقافة

لأول مرة في اللغة العربية نضع بين يدي القارئ العربي الترجمة الدقيقة لاروع المغامرات والجولات العالمية في دنيا العلم والثقافة وذلك بحجم جديد وسعر زهيد واخراج فاخر

صدر من المجموعة

١- في اعوار المحيط ٢- الانسان رائد الفضاء
٣- العالم المتجمد ٤- نسور الجو

ثمن العدد الواحد ١٠٠ قرشا لبنانيا

منشورات المكتبة الأهلية - بيروت

بوصف ؟ ... فلا ضرورة لذلك . وما هو القصد من وصف مثل تلك العملية البشعة ، كما يفعل ادباؤنا ؟.

انمدرسة تنيسي وليامز ، وميلر ، والجيرن ، وباولز تقوم في حقيقتها على الاسهاب في وصف العملية الجنسية ، كما تغرق فيتعريفات انقوانين ، وتحاول ان تبرز لنا كل ما ينص عليه القانون ، ما يحرمه وما يبيحه ، وتترك كل ما أهتم به دستويفسكي.

ان دستويفسكي قد قدم لنا تجربة كما يفعل أدباؤنا . تجربة مرة ومؤلمة . ولكنها من وجهة نظر الفنان صورة مألوفة ، كما هو الحال في واقع كل تجربة او عمل انساني . لكن دستويفسكي ، اهمل ما يمكن ان يقوله الطبيب عن حادثة الاغتصاب ، وكل ما دون في محضر المحكمة بالتفصيل ، ومع ذلك فهو لم يلق بمثل هذه التجربة امامنا دون ان يهتم بها او يعيرها اعتباره ، لنكتشف نحن المغزى الذي يرمي اليه. انهيعرض لنا رجلا وقع تحت سيطرة الجريمة وما دعاه بالاعتراف قد جاء شفهيا على لسان المجرم أمام المحكمة ، ثم خطيا في افادته عند القاء القبض عليه ، ومع هذا فان ذلك الاعتراف ، ليس نسخة عن تلك الاعترافات التي تعودنا أن نسمعها من أفواه المجرمين أمام المحاكم.

وضمن هذا فان دستويفسكي يكشف لنا عنأن روح الانسان خالدة ومعرضة لأن تشعره بمثل تلك الاعمال ، ولكن بالرغم من بشاعة نموذجهذا العمل فانه لا يمكن أنينال من كون هذه الروح خالدة او فانية ، معطاء أو بخيلة مجدبة . ان عمل دستويفسكي نقد شامل للشخصية الانسانية، والظروف التي تحيط بها ، كما ان هذه الظروف هي أزلية ، تنطبق على كل نوع من الحالات التي يمر بها الانسان .

اذن ..

فان هناك سببا ملحا ، وهدفا معينا ، لدستويفسكي حين عمد الى تقديم مثل تلك التجربة في اطار فني يقتدى به.

وليس مطلوبا من كتابنا ، أن يتبعوا طريقة دستويفسكي في التعبير عن التجارب التي يعيشهامجتمعنا ، حتى ولاهم مطالبون بأتخاذ نفسالمادة التي اتخذها ارضا أقام عليها أدبه . ان الالتزامات الفنية ، هي ما يجب ان يتوفر لدى من يزعم أنه كاتب رواية .

نموذج المرأة

الصورة الفنية الحية للمرأة ليست موجودة في الأدبالاميركي الحديث ، حتى ولا في أدب أية مرحلة من مراحل التاريخ ، وفي كل آداب العالم .

تلك الصورة التي تبرز المرأة كائنا حيا ، ليس شيئا جامدا ، صورة المرأة كما هي ، كما رسمها فلوبير في روايته الرائعة « مدام بوفاري » كما رسمها تولستوي في روايتيه « ناناشا » و «آنا كارنينا ». ولم يكن دستويفسكي معاصر تولستوي في روائعه التي قدمها للعالم ، ذا حظ في رسم شخصياته النسوية أكثر من غيره . فان النساء في رواياته من « جرونيشكا » الى « كاترينا ايفانوفنا » ـ في الحقيقة ـ شخصيات ممتعة ، وصادقة في سلوكها وتصرفها ، ولكنهن لا يبرزن كائنات حية.

يقول نيقول نيقولا برديييف : « لم يحدث أن ظهرت المرأة في الادب كمخلوق مستقل ، ونه وحدته الخاصة . لقد جعل دستويفسكي من المرأة في أدبه حجر طريق ، يسترشد به الرجل ، ويتخذه شاهدا علىعظمته. ان روح أدبه رجولي من الوجهة الرئيسية ، وتأتي المرأة لتكون بمثابة عنوان لمأساة .. مأساة الرجل الداخلية .. انها ليست أكثر من عامل اغراء » .

ويقول برديييف بصدد الشخصيات النسائية اللواتي احتللن مكانة هامة في الادب بصورة عامة : « ليس بينهن امراة عظيمة . وليس بينهن امرأة تتمتع بطابع استقلالي ، وقيمة مرموقة في نفسها ، فالقيمة التي تمراة هي ما يمنحها اياها الرجل .. الرجل هو الشخصية الوحيدة ، المناط بها عظمة الكون ، وحيث لا تكون المرأة بالنسبة للرجل سوى تعبير داخلي » .

ان المشكلة الصعبة التي يجابهها الكتاب رجالا كانوا أم نساء ، في تشخيص المرأة تشخيصا حيا ، ناشئة من الاساس عن الوضع الثانوي، او الادنى مرتبة ، الذي فرض عى المرأة في التاريخ . والمرأة بالاختصار ، من وجهة نظر الفنان كائن ضعيف ، غير ثابت الطبيعة ، بسبب وضعها في المجتمع ، وبسبب عقليتها وعاطفيتها في نفس الوقت ، وهو نفس السبب في ان الاديبات منالنساء ، لم ينجحن في تصوير المرأة أكثر مما فعل الرجل ، سواء أبرزت صورة المرأة في الادب من خلال عالم الرجلالخاص وتعبيرا عن النظرة الجزئية ، أو البحث المتواصل عن الناحية الجنسية ، لتحقيق ذاتها وفرديتها .

ان صورة العلاقة بين الرجل والمرأة ـ العلاقة التي تتناول حقيقة الجنس ـ هي أمر شائع في أدبنا ، سيما في آثار كتابنا الكبار . فالمرأة في آثار هؤلاء ، ليست سوى صورة مجسدة للغريزة الجنسية ، المنبعثة عن افكار الرجل ، وهي في حد ذاتها ، ثورة كبرى على القضايا الجنسية، كما انها تحمل في حقيقتها ملامح اعتبار الرجل للمرأة في المجتمع.

ان روايات كتاب ما « بعد الجيل الضائع » ، الذي ركز عليهمجون الدريج في دراسته « البحث عن الهرطقة » تطفح كلها بهذه النظرة الاحتقارية للمرأة . ونجد في نفس الوقت أن نظرة هؤلاء الكتاب للمرأة ، في واقع الحياة ، مطابقة لنظرتهم اليها في قصصهم .

وإذا ما بحثنا في آثار هؤلاء الكتاب عن المرأة المسنة ، فاننا لن نجدها ولن نعثر عليها فيسطر واحد من كل ما كتبوه . ان كل ابطال رواياتهم من الفتيات المراهقات اللواتي تحرقهن الشهوة ، وتهزهن حمى المراهقة ، وهذا النموذج للمرأة فيالرواية الاميركية بصفة خاصة ، موجود بنسبةتسعين في المائة منالشخصيات النسائية فيالرواية المعاصرة.

ولعل روايتي الكاتب جيمس جونس « من هنا والى الابد » From here to Eternity و « البعض آتى راكضا » Some come running ثم رواية نورمان ميلر «حديقة الغزلان» The deer park هي أصدق أمثلة على ما في أدبنا الحديث من نماذج للمرأة .

اذ ليست المرأة في هذه الروايات كائنا حيا غنيا ، وذات شخصية متميزة مستقلة ، وهي ليست طبيعية في نفس الوقت ، انما هي وسيلة ليس غير ، لسد حاجة الرجل الجنسية .

ان الرومانسيين عندنا ، قد وضعوا ـ مجددا ـ الحب على «الرف» ولم يعد باستطاعتهم رسم صورة حقيقية لهذا الحب ، كما أنهم أصبحوا عاجزين عن الاحتفاظ بعاطفة الحب نفسها، ان فيحقيقتهم أو فيرواياتهم، فهم لا يهتمون بشيء في علاقة الرجل بالمرأة عدا العملية الجنسية ـ ثم يصرخون بملء أفواههم نادبين ـ على أنه لميعد هناك حب ، وقد فقدت كل قيمة للحب في المجتمع . انهم يندبون غياب الحب ، وهم ناسخوه ، انهم لا يستطيعون شيئا سوى الصراخ والعويل ، والمطالبة باستعادته للمجتمع .

ترجمة وتلخيص : **توفيق صرداوي**

كتـابان خطيران

عارنا في الجزائر لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الآداب